

حجة مع شيخى

لفضيلة الشيخ عبد المجيد خليل الشريف

من الأحد ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ حتى الأحد ٤ محرم سنة ١٣٩٤ هـ

الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٧٣ م حتى ٢٧ يناير سنة ١٩٧٤ م

كان فى عزم سيدنا العارف بالله تعالى الشيخ محمد الحافظ التجانى رضى الله عنه السفر لأداء العمرة فى شهر رمضان سنة ١٣٩٣ هـ الموافق أكتوبر سنة ١٩٧٣ م ، لما فيها من الفضل الوارد فى الحديث الذى رواه الشيخان والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لامرأة من الأنصار يقال لها أم سنان : ((ما منعك أن تكونى حجاجت معنا ؟ قالت: ناضحان^(١) كائنا لأبى فلان - زوجها - حج هو وابنه على أحدهما ، وكان الآخر يسقى عليه غلامنا ، قال : فعمرة فى رمضان تقضى حجة ، أو حجة معى^(٢))) .

وقد حجز للسفر على الطائرة التى تغادر القاهرة يوم ١٧ رمضان ١٣٩٣ هـ ، وكانت نيته ومن فى رفقته أن يبقى مجاوراً فى الحرمين الشريفين حتى موسم الحج . ثم كانت حرب العاشر من رمضان - ٦ أكتوبر ١٩٧٣ م - التى أتم الله النصر فيها على اليهود، ودكت الجيوش الإسلامية معاقلمهم فى قناة السويس وفى الجولان ، فأوقفت رحلات الطائرات ، ولما أعيد فتح المطارات كان رمضان قد انقضى ، فرأى أن يكون السفر فى موسم الحج .

وقد قام رضى الله عنه من القاهرة يوم الأحد ٢٩ ذى القعدة ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١٩٧٣ م الساعة التاسعة صباحاً تقريباً ، وكان فى صحبته السيدة الفاضلة الجليلة حرمة المصون وابنها الأستاذ سيدى أحمد حفظه الله ورعاه ، كما كان لى الشرف أن كنت فى معيته أنا وحرمة فى هذه الرحلة المباركة ، وقد أهل رضى الله عنه وأهلنا معه بالحج مفرداً ، وأهل الأستاذ أحمد بالعمرة ، ووصل جدة الساعة ١٢ ، ٢٠ بتوقيت الحجاز بعد ساعتين ونصف ، وبقي بجدة إلى يوم الخميس ٣ ذى الحجة ، وكان خلال هذه المدة ضيفاً على السادة من إخوانه وأصدقائه .

ثم توجه إلى مكة المكرمة ليلة الجمعة فوصلها الساعة التاسعة مساءً ، ونزل عند المطوف أمين سرحان ، ولقى هناك فى نفس الليلة العلامة سيدى إدريس بن محمد العابد العراقى رضى الله

١ - بغيران ، يسقون عليهم الماء .

٢ - والمراد بالحجة هنا : حجة النافلة ، وأما الفريضة فلا تسقط المطالبة بها عن المكلف إلا بأدائها .

عنه الأستاذ بجامعة القرويين بفاس المحروسة ، وكان نازلاً عند هذا المطوف أيضاً ، وبعد أن استراح قام وأدى طواف القدوم وسعى الحج ، وانتهى من السعى عند أذان الفجر .
وقدم لزيارته بالمنزل الذى نزل فيه كثير من إخوانه وأصدقائه وأحابيه الذين وفدوا لأداء الحج من مشارق الأرض ومغاربها ، ومن السادة العلماء والفضلاء أهل البلاد ، كما زاره إخواننا من أهل العريش .

وفى يوم التروية يوم الثلاثاء الثامن من ذى الحجة أول يناير ١٩٧٤ م قام من مكة ، وفى صحبته بالسيارة إخواننا الذين قدموا من مصر وإخواننا الذين قدموا من السودان وكانوا نازلين عند هذا المطوف ، قاصداً إلى عرفات مباشرة تجنباً للزحام ، فوصلها مع الغروب ، وبعد انتهاء الوقوف بعرفة يوم الأربعاء نزل إلى منى لرمى الجمار ، وبقي بمنى إلى يوم الأحد ثالث أيام التشريق ، وكان مقامه بمنى محل اجتماع زواره من الحجاج من سائر البلاد والذين يستفسرون فى شؤون الحج وما يعرض لهم فيها .

كما زاره كذلك كثير من السادة العلماء والصلحاء وبعض سفراء الدول ، ثم عاد إلى مكة ظهر الأحد ١٣ ذى الحجة ، وفى يوم الاثنين ١٤ ذى الحجة اعتمر من التنعيم وبقي بمكة إلى يوم الخميس ١٧ ذى الحجة ١٣٩٣ هـ الموافق ١٠ يناير ١٩٧٤ م ، زار خلال هذه الفترة المكاتب واشترى - كما هى عادته - ما وجده من المطبوعات الحديثة من كتب الحديث وغيرها .

وفى يوم الخميس طاف طواف الوداع بعد أن صلى المغرب والعشاء بالحرم ، وقام فى الساعة الثامنة والنصف قاصداً المدينة المنورة لزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفى الطريق زار شهداء بدر وسيدى الحاج على حرازم رضى الله عنهم أجمعين ، ثم واصل السفر ووصل المدينة المنورة الساعة الثالثة والنصف قبل فجر الجمعة ، ونزل بدار قريبة من الحرم ووجد بها كذلك سيدى إدريس بن العابد العراقى رضى الله عنه وكان نازلاً بغرفة مجاورة

للغرفة التي نزل فيها ، وزاره في تلك الدار كثير من السادة العلماء من الحجاج وغيرهم وبعض السادة من سفراء الدول الذين كانوا بالحج .

وقد سمع أن بالمدينة نسخة مخطوطة من الجامع الكبير - جمع الجوامع - فى الحديث للحافظ السيوطى موجودة برباط مظهر ، فتوجه لهذا الرباط للاطلاع على هذه النسخة النادرة من الجامع الكبير ، وهناك أطلعه العالم الفاضل الشيخ محمد مظهر القائم بنظارة هذا الرباط بما فيه المكتبة على هذا الجامع ، وهو مكتوب بخط واضح فى ست مجلدات ضخمة ، ويقوم مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر بمصر بطبع هذا الجامع الآن ، ولعل هذه النسخة الخطية وهى نسخة كاملة تساعد على إتمام طبعه إذا أمكن تصويرها ، فطلب سيدنا رضى الله عنه من الشيخ محمد مظهر الإذن فى تصويرها ، فأبدى استعداداه بارك الله فيه وأطال فى حياته وقال : إنه لا يمانع أبداً فى تصويرها ليطلعها من يستطيع ذلك خدمة للسنة المحمدية ، فأخبره سيدنا أن صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الإسلام الدكتور عبد الحلیم محمود شيخ الأزهر موجود فى الحج وأنه سيقدم المدينة المنورة ، وهو مهتم جداً بطبع هذا الجامع وصاحب الفضل فى ذلك جزاه الله عن الإسلام والمسلمين وعن السنة المحمدية خيراً ، وأنه سيخبره بوجود هذه النسخة هنا ليطلع عليها بنفسه ، وفعلاً تقابل سيدنا رضى الله عنه مع صاحب الفضيلة شيخ الإسلام على مائدة فضيلة العالم الجليل الشيخ أحمد عبد الجواد وأخبره بذلك ، ووعد فضيلة الدكتور بالاطلاع عليها واتخاذ اللازم نحو تصويرها وإعدادها للاستعانة بها فى طبع هذا المخطوط النفيس .

وقد أخبر الشيخ محمد أحمد مظهر الفاروقى - ناظر رباط مظهر - سيدنا رضى الله عنه بما أكرم الله به والده الشيخ أحمد وجده الشيخ محمد مظهر ، فإن جده رضى الله عنه كان عالماً جليلاً وكان له صلة بعالم الجن المؤمنين ، فقتل اثنان من أولاده وتوفى الثالث بعدهما ، وبقي ابنه أحمد ولكنه أصيب بمرض وهو صغير جعله مقعداً لا يستطيع السير على قدميه ، وقد حفظه

والده القرآن الكريم وهو مُقعد ، وأتم حفظه ولم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكانت العادة أن تقام حفلة تكريم لمن يتم ختم القرآن الكريم ، فأقام له والده هذه الحفلة ، وفي أثناء الحفل بكى والده الشيخ محمد مظهر ، فقال له خليفته السيد عبد الجليل براءه : هذا يوم فرح وليس بيوم بكاء ، فرد عليه الشيخ : بكيت لأن هذا آخر فرح لي في الدنيا وإنى عن قريب سأرحل إلى الدار الآخرة ، وقال : إن ابني هذا قد توجهت إليه بجميع علوم الباطن وبقي عليه علم الظاهر، وأسأل الله أن يشفيه ويرزقه من يعلمه علم الظاهر ، وفي هذه اللحظة استأذن الخليفة من الشيخ ليقول شعراً يذكر فيه تاريخ ختم ابن أحمد محمد مظهر للقرآن - وهو سنة ١٣٠٠ هجرية - فقال :

غوٲ الأنام الحبر سيدنا الذى هو غوٲ كل الخلق فى أيامه
مد نجله نور البصائر أحمد قرأ الكتاب وفاح مسك ختامه
أرخت عام الختم منه مهتئاً يهنيه مولاه بختم كلامه (١٣٠٠)

وفى شهر المحرم من عام ١٣٠١ هـ حصل وباء بالمدينة وكثر موت الناس بسببه ، فطلب الشيخ محمد مظهر من ربه أن يرفع هذا الوباء والبلاء عن أهل المدينة ، وطلب من الله أن يأخذه هو ويجعله فداء لأهل المدينة ، وفى اليوم السابع من المحرم أصيب بهذا المرض ، ثم ودع ابنه أحمد فى ليلة العاشر من المحرم وقال له : تأتبنى فى الصباح عند قبرى عند سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ثالث الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم جميعاً ، فتوفى من ليلته بعد صلاة الصبح رحمه الله رحمة واسعة ، وقد فُتح قبره بعد خمسين سنة من وفاته فوجد كأنما هو متوفى فى يومه رضى الله عنه .

أما ابنه أحمد فقد سخر الله لهم بمن أخبرهم بأن يوضع فى حِجر أحمد قليل من التمر ويربط ظهره ورجليه المقيدتين بخوص النحل ويكون ذلك فى ليلة الجمعة ، ثم يوضع فى باب السلام من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ويكون معه رجل ، فأول من يخرج من المسجد بعد

صلاة المغرب من ليلة الجمعة يطلب هذا الرجل منه أن يقص هذا الحزام المربوط على رجليه من خوص النخل ويأخذ التمر الذى فى حجره ، وكررت هذه العملية ثلاث جمع متوالية ، فبمجرد قص رباط الخوص فى الجمعة الثالثة قام أحمد كأن لم يكن به شئ وتم له الشفاء من هذا المرض الذى أقعده ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاء والده ، ثم قيض الله له من علمه العلم الظاهر فقد جاء فضيلة الشيخ السيد محمد صالح الزواوى مفتى مكة المكرمة إذ ذاك وكان وصياً للشيخ محمد مظهر وخليفة له ، فأخذ أحمد بن الشيخ وذهب به إلى مكة وأدخله المدرسة الصولتية ليتعلم بها العلوم الشرعية وغيرها ، فمكث بها سبع سنين أتم فيها تحصيل العلوم ، وبذلك يكون قد استجاب الله دعوة والده رحمه الله ، والحمد لله فإن الشيخ محمد أحمد مظهر ناظر الرباط الآن جمع الله له علوم جده الشيخ محمد وعلوم والده الشيخ أحمد ، ونسأل الله أن يمد فى حياته ، وينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يبارك فى ذريته الطاهرة ، آمين .

وقد زار سيدنا رضى الله عنه فى يوم الاثنين بعض المزارات ، منها مسجد قباء ، وسيدنا حمزة رضى الله عنه ، ومسجد القبلتين ، كما زار بعض السادة العلماء وأصحاب المكتبات ، واشترى بعض الكتب فى الحديث .

ومن الطريف أن طلب أحد إخواننا من السودان وهو الشيخ التجانى المرضى ، من سيدنا رضى الله عنه أن يعقد قران ابن أخيه عمران بجر على ابنته نادية ، وهو وكيل عن ابن أخيه ووكيل أيضاً عن ابنته ، والعروسان فى السودان ، تبركاً بالمصطفى صلى الله عليه وسلم وبسيدنا رضى الله عنه ، فعقد سيدنا رضى الله عنه العقد وكان ذلك مساء الأربعاء ٢٣ ذى الحجة الموافق ١٦ يناير ، وكان مما قاله رضى الله عنه فى الخطبة بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى سنّ الزواج للعفة ولبقاء الذرية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالزواج وحبب فيه ، وقال : ((يَا مَعْشَرَ الشُّبَّابِ

مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ)) ، أى حصن وقطع للشهوة وقطع لمعصية الله تبارك وتعالى ، ودعا للعروسين .

وزار البقيع صباح الخميس ، وفى يوم الجمعة وقد أتم بالمدينة ثمانية أيام زار المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء مودعاً ومستئذناً فى السفر ، فغادرها الساعة الثامنة والرابع مساءً ٢٥ ذى الحجة الموافق ١٨ يناير قاصداً جدة ، وزار فى الطريق شهداء بدر ومكث ببدر للراحة ما يقرب من ساعتين ، ثم واصل السفر إلى جدة فوصلها الساعة الرابعة والنصف صباح السبت ، وبقي بجدة إلى يوم الثلاثاء ٢٩ ذى الحجة الموافق ٢٢ يناير حيث توجه ليلاً بعد صلاة العشاء إلى مكة المكرمة معتمراً ، فوصلها الساعة الحادية عشر مساءً ، وبقي إلى يوم الجمعة ، وقد زار بعض السادة العلماء وأهل الفضل تلبية لدعوتهم ، واجتمع بكثير من علماء المسلمين من المشرق والمغرب .

وفى يوم الخميس غرة المحرم ١٣٩٤ هـ الموافق ٢٤ يناير ١٩٧٤ م قام بعمل عمرة من التنعيم، ثم فى يوم الجمعة بعد صلاة العشاء طاف طواف الوداع وقام إلى جدة فوصلها الساعة ١٢ ليلاً ، وبقي بها إلى يوم الأحد ٤ محرم ١٣٩٤ هـ الموافق ٢٧ يناير ١٩٧٤ م حيث غادر مطار جدة قاصداً القاهرة الساعة التاسعة مساءً بتوقيت جدة ، ووصل مطار القاهرة بعد ساعتين ونصف وكانت الساعة العاشرة والنصف بتوقيت مصر ، وكان فى شرف استقباله رضى الله عنه كثير من السادة إخواننا وبعض أحبابه وأصدقائه رضى الله عنه ، فزار سيدنا الحسين والسيدة زينب رضى الله عنهما ، ثم توجه لمنزله العامر بسلامة الله تعالى ، وكانت مدة إقامته بالحج ٣٦ يوماً .

نسأل الله تعالى أن يمنَّ عليه رضى الله عنه بالصحة والعافية ، وأن يمنَّ علينا ويسعدنا بالحج فى معيته رضى الله عنه مراراً وتكراراً ، إنه على ما يشاء قدير ، والحمد لله رب العالمين .